2000 0413-00026-L

ربع قرن على ١٣ نيسان.. أي مقدار من الابتعاد حقّقنا عن ذلك اليوم؟

عين الرمانة تلعب الطاولة والشهود يتذكّرون

لماذا حصل ما حصل؟ و«الله يرحم موتانا وموتاهم»

كان يا ما كان في قديم الزمان.. حي وادع اسمه «شارع المراية» في منطقة عين الرمانة، كان يحتفل في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأحد الواقع في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بقداس في كنيسة الخلاص، وإذ بحرب همجية تنتظره بعد ساعتين، تستمر نحو عقدين، تحصد مئات الألوف من القتلى، الجرحى، المعوقين، المهجرين، المهاجرين.. وتسكت شهرزاد عن الكلام المباح...

ذاكرة أهالي عين الرمانة زاخرة بكل تفاصيل ذلك اليوم، وهي حاضرة لسرد «حكاية البوسطة» فصلاً بفصل، شرط عدم ذكر اسم الراوي أو التقاط صورته، كأن الحذر والخوف يأبيان مغادرة أهل المنطقة الذين لم يوقنوا يوماً ان تلك الحادثة ستكون الشرارة الأولى لحرب همجية ستستمر سنوات».

رنا صيداني

في حديقة نصب (سيدة المراية) يلعب أربعة أشخاص في العقد الخامس أو السادس من عمرهم طاولة الزهر، ويخبروننا قصة البوسطة بعدما يطلقون على كل منهم إسماً حركياً.

الراوي سيكون «أبو علي»، وشريكه في (الشيش بيش) هو «أبو مشهور»، خصمهما «أبو فريد» أما الرابع فلا مشكلة لديه في كشف هويته، إنه شقيق حنا عون الذي اختير مع مارون الشيتي كبش فداء عمن أطلق النار على البوسطة فسجنا ٦ أشهر في رومية..!

يقول أبو علي ان الشيخ بيار الجميل كان يشارك في قداس في كنيسة الخلاص حين أطلقت سيارة فيات النار على مرافقه جوزف أبي عاصي فأردته «وكان الفلسطينيون يمرون بأسلحتهم الكاملة في المنطقة باستمرار وعامليتها مربط خيلهم، يطلقون النار في الهواء للتحدي والاستفزاز.. بعدما قتل أبي عاصي هاج الشباب ولطينا لهم...»

ويتابع أبو علي: «وصلت بوسطة تحتوي ٣٥ مسلحاً فلسطينياً.. أقسم بالله ومن اليوم حتى تقوم القيامة، وبدمّة مرتي وبنتي كانوا كلهم رجال، ولم يكن بينهم ولا امرأة واحدة أو طفل.. قوسنا عليهم بالجفوتي ما خلينا إلا صبي عمره ١٣ سنة والسائق»..

ومن بين (الدشش) و(الجهارو دو) يكمل أبو علي «لم يكن لدينا خيار.. لسنا نادمين على ما فعلناه.. لو لم نقف في وجه الفلسطينيين لكان كل المسيحيين اليوم مع الهنود الحمر في أميركا.. نحن شباب عين الرمانة جعلنا المنطقة أرضاً للصمود وللكرامة والعزة الوطنية.. كل شخص في المنطقة رأسه شامخ لأن صمود لبنان انطلق من هون..».

أبو فريد يرفض عرض ما يذكره ويكتفي بالقول: «أنا كنت معهم بالبوسطة.. مت ورجعت عشت..»؟

أما أبو مشهور فيسألنا عدم التحدث بالموضوع لأنه والد لشهيد «وأنا أصبت مرات عدة.. كنت مغواراً في الجيش.. أما اليوم.. فانظري إليّ أين أصبحت.. لا أقوى على السير.. خليني ساكت أحسن ما أكفر...».

محدثنا الرابع هو جورج شقيق حنا عون «الذي كان كبش فداء عن الشباب». ويضيف: «بعد حادثة البوسطة.. اتفق الشيخ بيار الجميل مع رشيد الصلح رئيس الوزراء آنذاك على ان يسلّم الصلح من أطلق النار على أبي عاصي شرط ان يسلّم الجميل من أطلق النار على البوسطة.. التزم الشيخ بيار بكلمته واختار أخي وشاب آخر يدعى مارون الشيتي وسلمهما فداء عن الشباب الـ ٤٠ الذين أطلقوا النار على البوسطة، فسجنا في رومية.. انتظرنا تسلم من أطلق النار على أبي عاصي لكن الرئيس الصلح لم يف بوعده..

ظل الرجلان ٦ أشهر في السجن إلى أن أطلقهما الشيخ أمين الجميل، وسلّم حنا باليد إلى والدتي وطلب منه ان يرتاح ولا يشارك في المعارك لأنه أدى واجبه كاملاً.. لكن أخي حنا رفض ذلك، إلى أن قتل في آذار ١٩٧٦».

وهنا تدمع عيني جورج قبل أن يتابع بالقول: «حين سقطت الأسواق التجارية طلب الشباب المساعدة من قبضايات عين الرمانة لما عرف عنهم من بسالة وإقدام».

تطوع أخي حنا مع آخرين ومع كميل هرموش زعيم المنطقة حينذاك.. بعدما تمكنوا من استرجاع الأسواق والهوليداي إن أرادوا تطهير ساحة رياض الصلح.. تطوع أخي لاستكشاف المتراس على درج الكبوشية.. فاصطاده القناص هو واثنين من أصدقائه.. تقدم هرموش لانتشال الجثث فأصيب أيضاً وتوفي في مستشفى اوتيل ديو..» وهنا يغالب جورج الغصة في صوته ويختم «الله يرحم موتانا وموتاهم».

نكمل جولتنا في اتجاه المكان الذي سقطت فيه الضحية الأولى للحرب، جوزيف أبي عاصي مرافق الشيخ بيار الجميل. يضج المكان اليوم بالحركة والناس كأن شيئاً لم يكن، لكن دكان الفليبرز الذي كان قبل ٢٥ عاماً بيتاً لكل القبضايات صار اليوم محل سمانة، تستأجره سيدتان الأولى من آل اسطفان والثانية ترفض الكشف عن اسمها أيضاً وتقول: «أنا شيعية وشريكتي مسيحية، وصاحب المحل درزي من بعلشميه.. يعني كرّسنا الوحدة الوطنية...» وتؤكد ان الدكان «وجهه خير علينا، على الرغم من ان التاريخ يقول عكس ذلك، نحن والحمدلله نيتنا صافية ورزقنا على الله».

الشاهد الجديد الذي نلتقي به في جولتنا يطلب منا أيضاً عدم الكشف عن اسمه ويمضي دقائق يختار اسمه الحركي: «سميني أبو حنا.. أبو كمال.. سميني المواطن الصالح عماد موسى...»!

ويروي «عماد» ما رآه بأم العين (على ذمته) فيقول: «اختلف الشباب مع سائق سيارة الفولسفاكن الذي اتضح لاحقاً انه فلسطيني، فضربوه، بعد قليل مرّت سيارة فيات اطلق من فيها النار على جوزيف أبي عاصي فأردوه. جنّ الشباب، كل منّا خمل الجفت الذي بحوزته.. وهجمنا على البوسطة..».

ويبدي «عماد» استغرابه لدخول الحافلة إلى الشارع على الرغم من ان الدرك كان قطع الطريق من شارع أسعد الأسعد وحتى تمثال الرصاص في بولفار كميل شمعون، «كيف سمح الدرك للبوسطة بالدخول ولماذا.. إلى اليوم أسئلة لا أجرؤ على التفكير فيها».

نختتم جولتنا بالشاهد الوحيد الذي قبل الكشف عن اسمه وهو ميشال فؤاد الخوري صاحب الدكان الملاصق لمكان اغتيال أبي عاصي.. فيقول انه نجا من «خرم الإبرة لأني كنت أقف إلى جانب جوزيف لكنني دخلت إلى الدكان لخدمة زبون.. بعد لحظات مرّت سيارة الفيات وأطلقت النار على أبي عاصي..».

ويتذكّر الخوري تفاصيل الحرب التي «لا تذهب من بالي ليالي قضيناها في الملاجئ.. اضطررنا إلى شرب مياه الآبار.. لا بأس سنحاول النسيان شرط ان لا تتكرر المأساة في تموز المقبل كما نسمع من هنا وهناك».

مخاوف لا تزال في زوايا عين الرمانة، وفي شارع المراية يصيح الديك، فتسكت شهرزاد عن الكلام المباح.

● عند هذه الزاوية قتل أبو عاصي (يارا فرنسيس)

● شارع المراية اليوم: هنا وقع حادث البوسطة

مذيعون آلمهم فرض قراءة البيانات الجاهزة ومصوّرون يهرعون الى حيث يهرب الناس

«أيقظني رئيس قسم الارسال في تلفزيون لبنان مسعود صبح في الحادية عشرة والنصف ليلاً لإذاعة تصريح صادر عن القصر الجمهوري في غضون ثلاث دقائق. لم يكن لدي الوقت الكافي لتغيير ملابسي، فغسلت وجهي وأذعت البيان وأنا مرتد البيجاما».

عاش عرفات حجازي الحرب اللبنانية بكل تفاصيلها، كبقية زملائه الصحافيين والمصوّرين الذين تحولوا «مقاتلين اعلاميين» يتحدون الصعوبات والمخاطر لبث الأخبار ونقل الصور الحية لمآسي الحرب وفصولها.

«المستقبل» التقت عدداً منهم للوقوف عند تجربتهم الصعبة، وذكرياتهم المريرة، والظروف التي عاشوها وتعايشوا معها في ظل وابل من القذائف وجحافل الصواريخ.

نورما شاهين

عاد عرفات حجازي بالذاكرة الى أيام مضت، عندما بقي محتجزاً في مبنى التلفزيون طوال ستة أشهر من دون ان يلتقي عائلته التي كانت تطمئن عليه عبر اطلالته على الشاشة. «كنا نتبادل مهمات العمل المنزلي أنا والزميل جان خوري داخل مبنى التلفزيون. كنا نطبخ، نغسل وننظف الأرض وعندما كان يحتدم الصراع نبدأ في تعداد القذائف المتجولة بين منطقتي عين الرمانة والشياح».

وعن الصعوبات التي واجهتهم في المهنة قال: «كانت ظروف العمل صعبة جداً. كنا نحاول التعاطي مع الأمور بموضوعية، وكنا نعمد الى «تدوير الزوايا الحادة» منعاً لإثارة النعرات، واتبعنا سياسة «اضرب لا توجّع» لتجنب مزيد من الصراعات والأزمات».

وأضاف: «كنا نستغل بعض ما يعطى لنا من هوامش الحرية الى أقصى الحدود للحفاظ على صداقاتنا وإشاعة جو من الأمل بين الناس».

العبوس الدائم

«ولكن، لسوء الحظ كان يفرض علينا في بعض الأحيان، نشر البيانات بحذافيرها، وغالباً ما كنا نتعرض للتهديدات اذ ما حذفنا بعض الجمل منها. وقد تعرضت مرة لمحاولة اغتيال مع عائلتي، وتوقفت عن العمل لمدة اسبوعين».

وذكر حجازي ان أسوأ الحروب الاعلامية كانت تلك التي دارت، بعد انقسام تلفزيون لبنان، بين القناة ٧ في تلة الخياط، والقناة ١١ في الحازمية، فكان المتحاربون يتبارون في من يسكت صوت الآخر أولاً. وكان المبنيان عرضة للقذائف خلال اذاعة النشرة الاخبارية، «حتى انني اضطررت مرة الى مغادرة الاستوديو اثناء تقديم النشرة بعد سقوط قذيفة خرقت سقف الطابق الثاني تحت الأرض».

وعن سبب عبوسه الدائم قال: «كانت أخبار أحداث الحرب القاسية تفرض عليّ الظهور بجدية تامة، وأنا بطبعي لا أضحك حتى في مواسم الفرح. ولكنني أذكر انني ابتسمت مرة خلال تقديم النشرة وكان القصف ينهمر علينا من كل الجهات. فقد حصل ان أتى أحد العاملين في التلفزيون الى الاستوديو، وأحضر معه كلبه وأصرّ على بقائه معنا على اعتبار انه حيوان أليف ولن يزعج أحداً، ومع القصف راح الكلب ينبح بقوة فاضطررت الى الاسراع في تقديم الخبر، وتوقفت قائلاً «لحظات ويوافيكم الزميل ببقية الأخبار».

سعاد العشي

وتحدثت سعاد قاروط العشي عن الصعوبات المادية والمعنوية التي عانت منها اثناء الحرب خلال عملها كمذيعة في تلفزيون لبنان، قالت: «أحياناً كنا نجد صعوبة في تأمين الأفلام، حتى اننا في بعض الأوقات لم نكن نجد ورقاً لنكتب عليه النشرة فكنا نستعمل أوراق وكالات الانباء المحلية». وذكرت كيف تحوّلت دبابة الجيش عام ١٩٧٥ الى سيارة أجرة تنقلها وعرفات حجازي يومياً الى الحازمية لإذاعة نشرة الأخبار ثم تعيدها الى منزلها مساء.

«كانت إطلالتي على الشاشة في الأيام السوداء تبعث الأمل في نفوس المشاهدين الذين ارتبطنا روحياً معهم، وباتوا سبب اصرارنا على تحدي الصعوبات، ومتابعة مسيرتنا الاعلامية».

وعن الذكريات الأليمة التي ما زالت راسخة في ذاكرتها قالت: «كانت رؤية الجنود الاسرائيليين في بيروت أسوأ مشهد رأيته في حياتي، اذ لم تصدق عيناي حينها ما رأت وتحجرت دمعتي في المآقي. أحسست بالذل والإهانة، وقررت يومها التوقف عن العمل، لكنني لم أصمد طويلاً، وعدت أحارب على طريقتي ومن موقعي».

وأضافت: «عملنا في ظروف صعبة، وكنت اضطر أحياناً الى اذاعة أخبار لم أكن مقتنعة بها. وأحياناً كنت أقول أموراً من صميم قناعتي. وأذكر انني بكيت مرة اثناء تقديم النشرة بعدما انهمر القصف على مبنى التلفزيون، وسمعت صراخ الحرس في الخارج، وبكيت بشدة، عندما كنت أعلق مباشرة على أحداث وصور مجزرة قانا».

وبحزن وغصة قالت: «أذكر عندما انقسم تلفزيون لبنان، كيف تحوّلنا جبهتي حرب بحكم وجودنا في منطقتين مختلفتين».

وعن وضعها الزوجي وكونها أماً لثلاثة أطفال قالت: «كان زوجي ينتظرني في الخارج على درج المنزل، ومرة صرخ في وجهي «عدت يا جميلة بوحيرد» (مناضلة جزائرية)، ولكنه كان يقدر عملي كونه اعلامياً، ويفهم التحدي الذي كنت أواجهه. وكذلك أولادي الثلاثة، فهم يحترمون عملي ويعتبرونني قدوة لهم، وتعلموا ان تحمّل المسؤولية ضروري في الحياة على الرغم من كل العقبات».

وذكرت العشي «ان الحرب يجب ان نأخذ منها العبر حتى لا نكرر الأخطاء نفسها، ونتجاوز الأحقاد والآلام لأننا نمر اليوم في مرحلة صعبة وكأننا نشهد ولادة عسيرة».

مصورو الحرب:
جمال الصعيدي

ماذا عن تجربة المصورين، الذين يعبرون فوق الجثث غير آبهين بالقذائف، لنقل المشاهد الحية خلال الحرب الأليمة؟

شكلت الحرب بالنسبة الى جمال الصعيدي «مدرسة قاسية. دخلتها كهاو، وتدربت خلالها وعايشت كل مراحلها، ثم تخرجت منها وعلى جسدي ندوب تركتها أحداث أليمة كنت أنقل صورها الى العالم».

أضاف «كنا نذهب عكس التيار، ونقصد الأماكن التي يهرب منها الناس».

واعتبر ان «مجزرة صبرا وشاتيلا كانت من أصعب الأحداث التي صورتها وأكثرها إيلاماً، لكثرة الجثث فيها، والدماء التي طافت بها الشوارع».

وذكر ان «حرب «التحرير» و«الالغاء» كانت أسوأ وأقسى من الاجتياح الاسرائيلي. كنا نعمل في ظروف نفسية ومعنوية صعبة جداً، وكنا ننتهز الفرصة لزيارة أهلنا وعائلاتنا. وكنا نتنقل على كل الجبهات في يوم واحد، مثل العسكري الذي لم نكن نختلف عنه إلا بنوعية السلاح. اذ ان الكاميرا كانت سلاحنا».

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان للحرب حسناتها في زيادة خبرة المصوّر الصحافي وتعزيز قدراته وتفعيل دوره في المنطقة العربية كلها.

رمزي حيدر

المصور رمزي حيدر أصيب مرتين خلال اداء مهنته، ولكن حبه للكاميرا وشغفه بعمله دفع به الى تخطي العقبات وتجاوز القذائف.

وعما اذا شعر يوماً بالخوف قال: «نزلت الى الملجأ مرة واحدة خلال الحرب، واعتبرها اليوم اهانة لي. لكن، لم يكن في اليد حيلة فالقذائف كانت تنهمر كالمطر يومها».

وأضاف: «أحياناً يشعر المصوّر بالاشمئزاز اثناء تصويره ضحايا يحترقون أو أشخاصاً يحتضرون»، لكنه ما يلبث ان يكمل التصوير على اعتبار انه لا يمكنه المساهمة في الانقاذ.

وتابع: «ان المصور سفير ينقل الواقع الى الخارج، ويحوّل الصورة جزءاً من التاريخ والذاكرة».

علي محمد

وأشار علي محمد الى «ان مهنة التصوير هي مهنة المخاطر، ولا يمكن لأحد الاستمرار في العطاء فيها إلاّ اذا كان يعشقها».

وذكر ان «أصعب الأحداث كانت تلك التي دارت في قلب العاصمة، اذ كنا نخرج في الصباح ولا نعرف ان كنا سنعود سالمين».

جوزيف براك

أما جوزيف براك، فذكر انه «وعي على الحرب» ومشهد المسلحين منتشرين على الطرق فقرر المشاركة فيها على طريقته الخاصة، فحمل الكاميرا وراح ينقل صور الحرب بقساوتها، وأحياناً في مرارتها وحلاوتها. «فكانت صور الأعراس التي تتم على الرغم من الدمار والفوضى تبعث الأمل في نفوسنا ونفوس الناس». وأضاف «مرات عدة بكيت وأنا أصور جثث الأطفال الأبرياء، اذ كنت أفكر بأولادي المهددين بالموت في كل لحظة. كانت أياماً قاسية، ...تنذكر وما تنعاد».

اختلفت الروايات والموت واحد

١٣ نيسان في بيانات أطرافه

تعددت الروايات لحادثة بوسطة عين الرمانة الى حد التضارب، فكل طرف يقص ما حدث كما يراه، الا ان الموت كان قاسماً مشتركاً بين الاطراف جميعها، اذ سقط حينذاك ٢٦ فلسطينياً، واربعة لبنانيين بينهم محازبين كتائبيين.

كيف روت الصحف اللبنانية الحادثة صبيحة ١٤ نيسان ١٩٧٥، نقلاً عن بيانات الاطراف؟

الرواية الكتائبية

اصدر حزب الكتائب يومذاك بياناً بتفاصيل ما حدث جاء فيه: «الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الاحد ١٣ نيسان، بينما كان يحتفل بتدشين كنيسة في شارع الشيخ بيار الجميل في عين الرمانة، اذ بسيارة فولسفاكن مغطاة الرقم تخرق الشارع، فأوقفها احد رجال الامن محاولاً الاستفسار من سائقها، عن سبب تغطية رقم سيارته، فأجابه بأنه فدائي وينتمي الى احدى المنظمات. طلب رجل الامن منه ان ينزع الغطاء عن رقم السيارة ويعود. وبعد لحظات اجتاحت الشارع سيارة فيات مسرعة ومغطاة الرقم وفي داخلها اربعة مسلحين ووراءها اوتوبيس في داخله ٢٠ مسلحاً اخذوا يطلقون النار على جموع المصلين، ما ادى الى سقوط قتلى وجرحى بينهم الرفيق جوزف ابي عاصي».

وزاد الشيخ بيار الجميل في تصريح له يومذاك ان «سيارة الفيات قطعت الطريق بسرعة واطلق من كان فيها النار من اسلحة رشاشة فقتل جوزف ابي عاصي مع انطوان ميشال الحسيني، وجرح من المارة عدد من الاشخاص، ثم هربت سيارة الفولسفاكن بدورها، والرصاص من المسلحين من في داخلها يطلق بغزارة».

الرواية الفلسطينية

وقال بيان منظمة التحرير الفلسطينية انه «نحو الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر ١٣/٤/٧٥، وفي اثناء مرور احدى السيارات التابعة لاحدى فصائل الثورة الفلسطينية تعرضت في محلة عين الرمانة للاحتجاز ثم لاطلاق النار على السائق من قبل عناصر مسلحة من حزب الكتائب اللبناني».

واضاف البيان الفلسطيني «في نحو الساعة الاولى من بعد الظهر، وفي المحلة نفسها، واثناء مرور احدى سيارات الباص التي تقل عدداً من المواطنين الفلسطينيين، الذين شاركوا في الاحتفال بذكرى شهداء الخالصة الابطال، تعرضت السيارة التي كانت في طريقها الى مخيم تل الزعتر لاطلاق كثيف من مكامن نصبتها عناصر من حزب الكتائب بتدبير مسبق».

بدورها اصدرت الجبهة الشعبية - القيادة العامة بياناً روت فيه الحادثة بالآتي: «حينما انتهت احتفالات الخالصة حيث اشتركت الجماهير ومنظمات المقاومة في مسيرة الى مقبرة الشهداء، وفي اثناء عودة المشاركين الى منازلهم ومناطقهم في سيارات مدنية فوجئوا باطلاق النار من مكامن مدبّرة نصبتها ميليشيا الكتائب في ٣ مناطق رئيسية في طريق عودتهم وهي عين الرمانة، الشياح والاشرفية.

وتصدت هذه المكامن بنيران كثيفة من اسلحة رشاشة للسيارات المدنية ولاوتوبيس كبير ينقل المحتفلين العزل. وقد سقط برصاص الكتائب نحو ٣٢ بين قتيل وجريح توزعوا على اربعة مستشفيات هي: القدس، المقاصد، قلب يسوع والكرنتينا». وبين هؤلاء سائق الاوتوبيس مصطفى رضا وهو مصاب بجروح في رأسه وكتفه وحالته غير خطرة».

2000 0413-00022-L